محبة الله عز وجل في عيون الشعر العربي (١)

قال ابن القيم عن منازل المحبين[١]:

فحـيهلا إنْ كنتَ ذا همةٍ فقد ... حدا بكَ حادي الشوقِ فاطوِ المراحلا

وقــلْ لمنادي حبِّهم ورضاهم ... إذا ما دعـتا لبيكَ ألفا كواملا

ولا تنظرْ الأطلال من دونهم فإن ... نظـرتَ إلى الأطلالِ عُدْنَ حوائلا

ولا تنتــظرْ بالسيرِ رفقةَ قاعدٍ ... ودعــه فإن الشوقَ يكفيك حاملا

وخذْ منهــم زادًا إليهم وسِرْ على ... طريـقِ الهدى والفقرِ تصبحُ واصلا

وأحيِّ بذكــراهم سراكَ إذا ونت ... ركابـُك فالذكرى تعيدُك عاملا

وإما تخــافنَّ الكلالَ فقُلْ لها ... أمامك ورد الوصــلِ فابغِ المناهلا

وخذ قبـسًا من نورِهم ثم سِرْ بِه ... فنورُهم يهديــك ليس المشاعلا

وحيَّ عــلى وادِ الأراك فقُل به ... عساك تراهم فيه إن كنــتَ قائلا

وإلا ففي نعمان عند معرف الـ ... أحبة فاطلبْهم إذا كــنتَ سائلا

وإلا فــفي جمعٍ بليلتِه فإن ... كفت فمتى يا ويحَ من كانَ غافلا

وحيَّ علـى جناتِ عدنٍ بقربِهم ... منازلك الأولى بها كــنتَ نازلا

ولكن سباك الكاشحون لأجلِ ذا ... وقفتَ على الأطلالِ تبكي المنازلا

فدعها رسـومًا دارساتٍ فما بها ... مقيل فجاوزها فليســتْ منازلا

رسوم عفت يفنى بها الخلقُ كم بها ... قتيل وكمْ فيها لذا الخــلق قاتلا

وخذ يمنـةً عنها على المنهجِ الذي ... عليه سَرَى وفدُ المحـبةِ آهلا

وقُلْ ساعدي يا نفس بالصبرِ ساعةً ... فعند اللقا ذا الكدِّ يصبحُ زائلا

فما هي إلا ســاعة ثم تنقضي ... ويصبحُ ذو الأحزانِ فرحان جاذلا

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، (٦/٣)، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ – ١٩٧٣م.

وقال ابن رجب حاكيًا شعرَ أبي فراس الحمداني:

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالحَيَاةُ مَرِيرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ

وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وَبَيْنِي وَبَيْنَ العَالَمِينَ خَرَابُ

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الوُدُّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ ... وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

وقال أيضًا:

عرفتُ الهوى مذ عرفتُ هواك ... وأغلقْتُ قلبِي عن من سواك

وبتُّ أناديك يا من ترى ... خفايا القلوبِ ولسنا نراك

أُحِبُّك حبين حب الهوى ... وحبًّا لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حبُّ الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهلٌ له ... فكشفُك لي الحجب حتى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمدُ في ذا وذاك

وأشتاقُ إليك شوقَ النوى ... وشوقًا لقربِ الخطا من حماك

فأما الذي هو شوقُ النوى ... فنارُ حياتي غَدَتْ في ضياك

وأما اشتياقي لقربِ الحما ... فما ترى الدموع لطولِ نواك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لكَ الحمدُ في ذا وذاك[٢]

يا منزل الآياتِ والفرقانِ:

أَنْتَ الَّذِي صَوَّرْتَنِي وَخَلقتَنِي ... وَهَديْتني لِشَرَائِعِ الإِيمَانِ

---

(٢) مجموع رسائل ابن رجب، (٣/ ٣٩٨).

أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي ورَحِمْتَنِي ... وَجعلتَ صَدْرِيَ واعِيَ القُرْآنِ

أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي وَسقَيْتَنِي ... مِنْ غَيْرِ كَسْبِ يَدٍ وَلَا دُكَّانِ

وجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي وَنَصَرْتَنِي ... وَغَمَرْتَنِي بِالفَضْلِ والإِحْسَانِ

أَنْتَ الَّذِي آوَيْتَنِي وَحَبَوْتَنِي ... وَهَدَيْتَنِي مِنَ حِيرَةِ الخُذْلَانِ

وَزَرَعتَ لِي بَيْنَ القُلُوبِ مَوَدَّةً ... وَالعَطْفَ مِنْكَ بِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ

وَنَشرتَ لِي فِي العَالمِينَ مَحَاسِنًا ... وَسَتَرْتَ عَنْ أبصَارِهِمْ عِصْيَانِي

وجعلتَ ذِكْرِيَ فِي البَرِيَّةِ شَائِعًا ... حَتَّى جَعلْتَ جَمِيعَهُم إِخوَانِي

وَاللهِ لَو عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي ... لَأَبَى السَّلَامَ عليَّ مَنْ يَلْقَانِي

ولَأَعْرَضُوا عَنِّي ومَلُّوا صُحْبَتِي ... وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كرامةٍ بَهَوانِ

لَكنْ سَتَرتَ مَعَايِبِي ومثَالِبِي ... وحَلُمْتَ عَنْ سَقَطِي وعَنْ طُغيَانِي

فَلَكَ المحَامِدُ والمدَائِحُ كُلُّهَا ... بَخوَاطِرِي وَجَوَارِحِي وَلِسَانِي

وَلقَدْ مَنَنْتَ عَلَيَّ رَبِّ بأَنْعُمٍ ... مَا لِي بشُكْرِ أقلِّهنَّ يَدَانِ

فَوَ حَقِّ حِكْمَتِكَ التِي آتَيْتَنِي ... حَتَّى شَددتَ بِنُورِهَا بُرْهَانِي

لئنِ اجتَبَتْنِي مِنَ رِضَاكَ مَعُونَةٌ ... حتى تُقَوّيَ أيدُهَا إِيمَانِي

لأُسَبِّحَنَّكَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ... ولتخدمنَّكَ فِي الدُّجَى أَرْكَانِي

ولأَذْكُرَنَّكَ قَائِمًا أَو قَاعِدًا ... ولَأَشْكُرَنَّكَ سائِرَ الأَحيَانِ

ولأَكتُمَنَّ عَنْ البَرِيّةِ خِلَّتِيَّ ... ولأَشْكُوَنَّ إليك جَهْدَ زمَانِي

ولأَقْصِدنَّكَ فِي جَمِيعِ حَوَائِجِي ... مِنْ دُونِ قصدِ فُلانةٍ وفُلانِ

ولأحسِمَنَّ عَنْ الأنَامِ مَطَامِعِي ... بحُسَامِ يَأسٍ لم تَشُبْهُ بَنَانِي

ولأجعلَنَّ رِضَاك أكبرَ هِمَّتِي ... ولأضرِبَنَّ مِن الهَوَى شَيْطَانِي

ولأكسُوَنَّ عُيوبِ نَفسِي بالتُّقَى ... ولأقبِضَنَّ عَنِ الفُجُورِ عِنَانِي

ولأمنَعَنَّ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا ... ولأجعَلَنَّ الزُّهْدَ مِنْ أعْوَانِي

ولأتْلُوَنَّ حُرُوفَ وَحْيِكَ فِي الدُّجَى ... ولأحْرِقَنَّ بنُورِهِ شَيْطَانِي[٣]

---

(٣) أبو محمد الأندلسي القحطاني، مختارات من نوية القحطاني، ط. مكتبة السوادي، جدة.

بك أستجير:

بك أستجيرُ فمن يجيرُ سِوَاكا ... فأجِرْ ضعيفًا يَحْتَمِي بِحَمَاكا

إِنِّي ضعيفٌ أستعينُ على قِوى ... ذَنْبِي ومَعْصِيَتِي بفيضِ قِوَاكا

أذنبتُ يا ربي وآذتْني ذنوبٌ ... مَا لَهَا من غافرٍ إِلَّاكَا

دنْيَايَ غَرَّتني وعفوُك غَرَّني ... وا حَيْرَتِي في هذه أو ذاكَا

يا مدركَ الأبصارِ والأبصارُ لا ... تَدْري له ولكُنهِهِ إدرَاكا

إن لم تكنْ عَيْنِي تَرَاك فإنني ... في كلِّ شيءٍ أستبينُ عُلاكا

يا مُنبتَ الأزهارِ عاطرةَ الشَّذَا ... هذا الشَّذَا الفوَّاحُ نفحُ شَذَاكا

ربَّاهُ ها أنا ذا خَلُصْتُ من الهَوى ... واستقبلَ القلبُ الخليُّ هَوَاكا

وتركْتُ أُنْسِي بالحياةِ ولهوِها ... ولقيتُ كلَّ الأنسِ في نَجْواكا

ونسيتُ حُبِّي واعتزلتُ أحِبَّتِي ... ونسيتُ نَفْسي خوفَ أن أنساك

أنا كنتُ يا ربي أسيرَ غِشاوةٍ ... رانَتْ على قَلْبِي فَضَلَّ سَنَاكا

واليومَ يا ربِّي مَسَحْتُ غِشَاوتي ... وبدأتُ بالقلْبِ البصيرِ أَرَاكا

يا غَافِرَ الذنبِ العظيمِ وقابلًا ... للتَّوبِ قلبٌ تائبٌ ناجَاكا

يا ربِّ جئتُك ثاويًا أبْكِي على ... ما قَدَّمَتْه يَدَايَ لا أَتَباكى

أخشَى من العَرْضِ الرهيبِ عليك يا ... ربي وأخْشَى منك إذ ألقَاكا

يا ربِّ عدتُ إلى رِحَابِك تائبًا ... مُسْتَسْلمًا مستَمْسِكًا بعُراكا

ما لي وما للأغنياءِ وأنت يا ... رَبِّي الغنيُّ ولا يُحَدُّ غِنَاكا

ما لي وما للأقوياءِ وأنت يا ... ربي عظيمُ الشَّأنِ ما أقْوَاكا

إني أويْتُ لكل مأوًى في الحياةِ ... فما رأيتُ أعزَّ مِنْ مَأْواكا

وتلمسَتْ نفسي السبيلَ إلى النَّجَاةِ ... فلم تجدْ منجًى سِوَى مَنْجَاكا

وبحثتُ عن سِرِّ السعادةِ جاهدًا ... فوجدتُ هذا السرَّ في تَقْوَاكا

فليرضَ عنِّي الناسُ أو فليسْخَطوا ... أنا لم أعُدْ أسْعَى لغيرِ رِضَاكا

أدعوك يا ربي لتغْفِرَ حَوْبَتِي ... وتُعَينَني وتمدَّني بهُدَاكا

فاقْبَلْ دعائي واسْتَجِبْ لرجَاوَتِي ... ما خابَ يومًا من دَعَا ورجَاكا

يا ربِّ هذا العصرُ ألحدَ عندما ... سخَّرتَ يا ربِّي له دُنياكا

ما كاد يُطْلِقُ للعُلا صاروخَه ... حتى أشاحَ بوجِهه وقَلَاكا

أَوَ مَا دَرَى الإنسانُ أن جميعَ ما ... وصَلَتْ إليه يَدَاه من نُعْمَاكا

يا أيُّها الإنسانُ مهلًا واتَّئِدْ ... واشكُر لربِّك فضلَ ما أوْلَاكا

أفإنْ هَدَاك بعِلْمِه لعَجِيبةٍ ... تَزْوَرُّ عنه ويَنْثَنِي عِطْفَاكا

قلْ للطبيبِ تخطَّفَتْه يدُ الرَّدَى ... يا شَافِيَ الأمْراضِ من أردَاكا؟

قلْ للمريضِ نَجَا وعُوفِي بعدَما ... عَجَزَتْ فنونُ الطِبِّ، من عَافَاكا؟

قل للصحيحِ يموتُ لا من علةٍ ... من بالمنايا يا صحيحُ دَهَاكا؟

قلْ للجنينِ يعيشُ معزولًا بلا ... راعٍ ومرعًى ما الذي يَرْعَاكا؟

قل للوليدِ بكَى وأجهَشَ بالبُكَا ... عند الولادةِ ما الذي أبكَاكا؟

وإذا تَرَى الثُّعبانَ ينفُثُ سُمَّهُ ... فاسألْه مَن ذا بالسُّمومِ حَشَاكا؟

واسألْه كيف تعيشُ يا ثعبانُ أو ... تَحْيَا وهذا السُّمُّ يملأُ فَاكا؟

واسأل بطونَ النحلِ كيفَ تَقَاطَرَتْ ... شَهْدًا وقل للشَّهْدِ من حَلَّاكا؟

بل سَائِلْ اللبنَ المصَفَّى كان بيـ ... ـن دمٍ وفَرْثٍ ما الذي صَفَّاكا؟

وإذا رأيتَ الحيَّ يخرجُ مِن ... ثَنَايا مَيِّتٍ فاسْأَلْه من أحْيَاكا؟

قلْ للهَوَاءِ تحسُّه الأيدي ويخـ ... ـفى عن عيونِ الناسِ من أخْفَاكا؟

وإذا رأيتَ البدَر يَسْري ناشرًا ... أنوارَه فاسـألْه من أسْرَاكا؟

وإذا رأيتَ النخْلَ مشقوقَ النَّوَى ... فَاسْأَله مَن يا نخلُ شقَّ نَوَاكا؟

وإذا رأيتَ النارَ شبَّ لهيبُها ... فَاسْأَل لهيبَ النارِ من أورَاكا؟

وإذا ترى الجبلَ الأشَمَّ مَناطِحًا ... قِمَمَ السَّحَاب فَسَلْه من أرسَاكا؟

وإذا تَرَى صَخْرًا تفجَّر بالمياهِ فَسَلْه ... مِن بالمـاءِ شَقَّ صَفَاكا؟

وإذا رأيتَ النهرَ بالعذبِ الزُّلالِ جَرَى ... فسَـلْه مَن الذي أجْرَاكا؟

وإذا رأيتَ البحرَ بالملحِ الأُجَاجِ طَغَى ... فـسَلْه من الذي أطْغَاكا؟

وإذا رأيـتَ الليلَ يغْشَى داجِيًا ... فاسْأَلْه مَن يا ليلُ حَاكَ دُجَاكا؟

وإذا رأيت الصُّبْحَ يُسْفِرُ ضَاحِيًا ... فاسأله مَن يا صبحُ صاغَ ضُحَاكا؟

هذي العجائِبُ طالما أَخَذَتْ بها ... عيناكَ وانفَتَحَتْ بها أُذنَـاكا

واللهُ في كلِّ العَجَائِبِ مبدعٌ ... إن لم تكُنْ لِتراهُ فهو يَرَاكا

يا أيُّها الإنسانُ مهلًا مالذي ... باللهِ جَلَّ جَـلَالُه أغْرَاكا

فاسجُدْ لمَوْلاك القديرِ فإنَّما ... لابدَّ يومًا تَنْتَهي دنـياكا

وتكونُ في يومِ القيامةِ ماثلًا ... تُجْزَى بما قَدْ قدَّمَتْه يَدَاكا[٤]

إلهي أنتَ تعلمُ كيفَ حالي[٥]:

أغيبُ وذُو اللَّطائفِ لا يغيبُ ... وأرجُوهُ رجَاءً لا يُخيبُ

وأسألهُ السَّلامةَ من زمانٍ ... بُليتُ بهِ نوائبُه تُشيبُ

وأُنزلُ حَاجتي في كلِّ حالٍ ... إلى من تَطمئِنُّ بهِ القلُوبُ

ولا أرجُو سواهُ إذا دَهَاني ... زمانُ الجَوْرِ والجارُ المريبُ

فكم للهِ من تدبيرِ أمرٍ ... طوتهُ عن المشاهدَةِ الغيُوبُ

وكم في الغيبِ من تيسير عُسرٍ ... ومن تفريجِ نائبةٍ تنُوبُ

ومن كرمٍ ومن لطفٍ خفيٍّ ... ومن فرجٍ تزُولُ بهِ الكُروبُ

وما لي غيرُ بابِ اللهِ بابٌ ... ولا مولى سواهُ ولا حبيبُ

كريمٌ مُنعمٌ برٌّ لطيفٌ ... جميلُ السّترِ للدَّاعي مُجيبُ

حليمٌ لا يُعاجِلُ بالخَطَايا ... رحيمٌ غيثُ رحمتِهِ يَصُوبُ

فيا ملكَ الملوكِ أقِلْ عِثَاري ... فإني عنكَ أَنْأَتْنِي الذُنوبُ

وأمرضَنِي الهَوى لهوانِ حظِّي ... ولكن ليسَ غيرَكَ لي طبيبُ

وعَانَدَني الزمانُ وعِيلَ صَبري[٦] ... وضاقَ بعبدِكَ البلدُ الرَّحيبُ

فآمن رَوْعَتي واكْبِتْ حسُودًا ... يُعاملُني الصَّدَاقةَ وهو ذيبُ

وآنِسْني بأولادِي وأهْلي ... فقد يَسْتَوْحِشُ الرجلُ الغريبُ

ولي شَجَنٌ بأطفالٍ صِغَارٍ ... أكادُ إذا ذكرتُهُم أذوبُ

---

(٤) الله أهل الثناء والمجد، إبراهيم بيديوي، ص(٥٤٥-٥٥٠).

(٥) عبد الرحيم البرعي.

(٦) عيل صبري: غُلِب.

ولكني نَبَذْتُ زِمَامَ أمْرِي لمن تدبيرُهُ فينا عَجيبُ

هو الرحمنُ حَوْلي واعْتِصَامي بهِ وإليــهِ مُبتَهِلًا أُنيبُ

إلهي أنتَ تعلمُ كيفَ حالي فهل يا سيّدي فرجٌ قريُ